الخلود والفناء في شعر
الشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ)

الأستاذ المساعد الدكتور
حافظ كوزي عبد العالي
جامعة الكوفة / كلية الآداب

الخلود والفناء في شعر الشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ)

الأستاذ المساعد الدكتور
حافظ كوزي عبد العالي
جامعة الكوفة / كلية الآداب

تمهيد :

من المشكلات الرئيسة التي واجهت الإنسان وشغلت تفكيره في العصور كافة، مسالة الفناء والخلود أو الحياة والموت وما يؤول إليه مصير الإنسان بعد موته، ولعل حادث الموت أكثر تأثيرا في تفكير الإنسان ولاسيما في العصور القديمة التي سبقت الإسلام وذلك لان الفناء في مفهوم إنسان تلك العصور يعني العدم، إذ كان الاعتقاد السائد في العصر القديم ان الموت هو نهاية الحياة، وعلى الإنسان ان يقاوم هذا الأمر بكل ما استطاع من قوة، فراح يصارع الطبيعة وطاقاتها القوية الفاعلة وكان ـ أي الإنسان ـ هو المغلوب دائما، إذ لم يفلح في اغلب الأحيان في مقاومة الطاقات الجبارة الهائلة التي تملكها الطبيعة متمثلة في الرياح، والمطر والفيضانات والسيول وغيرها، تلك التي كانت تقضي على حياة الكائنات ومنها الإنسان، وراح نفر يقرُّ بعجزه أمام تلك القوى الجبارة، لا بل راح يحسد المعالم الثابتة أمام جبروت الطبيعة كالجبال والأنهار والطلول ونحوها، وراح يقارن بين ثباتها واستقرارها وبين عدم ثبات الإنسان واستمراره في هذه الحياة. وقد غاب عن تفكيره ان الخلود والفناء يشكلان نسقا دائريا، فبعد الموت حياة إذ يفضي كل منهما إلى الآخر[1].وإزاء هذا الشعور تجاه الموت والبرم بحقيقته وجدناه يتمسك بالحياة محاولا البقاء والخلود ما أمكنه ذلك وبأي شكل من أشكال الحياة، ولو

كان ذلك في جوف بهيمة، وقد عبّر (جالينوس) عن ذلك، إذ كان يفضل الخلود في الحياة الدنيا، ولو قدر له ان يعيش في بطن بغلة ورأسه خارجها [٢] وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ.... }[٣] فذكر الحياة نكرةً ولم يقل (على الحياة) ومعنى هذا أنهم يحرصون على أي نوع من أنواع الحياة مهما كان رديئا ومتدينا.لان الفناء عندهم شيء مخيف ورهيب فهو عكس الحياة تماما بما فيها من ملذات ومنافع ومتاع.

❖ قصدت بالخلود : الخلود في الحياة الدنيا فضلا عن الخلود في الآخرة.

وفكرة الفناء بعد الموت موجودة في الفلسفات القديمة كلها (فهوميروس) يرى ان الإنسان بعد موته يفنى ولم يبقَ من صفاته الجسمية إلا (الخيال) الذي يشبه الكائن الحي ولكنه لا يمكن الإمساك به وهو ضعيف كالظل واخرس [٤] وهو تصور أسطوري إذ يجعل (هوميروس) ظل (أخيل) يعبر عن وجهة النظر هذه قائلا: أناشدك يا (اوديسيوس) الشهير إلا تتحدث برفق عن الموت فلئن تعيش على الأرض عبدا لآخر.. خير من أن تحكم كملك لا ينازعه احد في مملكة الأشباح اللاجسدية [٥].وفي ظل هذا الخوف من الفناء بعد الموت راح الإنسان يفتش عن الخلود وسره ولنا في الأساطير القديمة وفي ملحمة جلجامش خير مثال إذ راح جلجامش يفتش عن الخلود بعد ان أفزعه موت صديقه ((انكيدو))[٦] وكذا الحال عند الشعراء العرب قبل الإسلام إذ نرى الشاعر الجاهلي قد وقف من الفناء وقفة تأمل وانتهى به الأمر إلى ان الفناء حقيقة محتومة لابد منها فلم يكن يتصور وجوده ولا حياته بعد الموت [٧] وهذا يعني ان الموت نهاية الكائن الحي ولا حياة بعده وان جسد الإنسان يتفسخ وينتهي، وكان يدهشه بقاء الأشياء والجمادات والأطلال، فهي أكثر ثباتا في هذه الحياة من الإنسان، وان كانت هناك صور مختلفة من الفناء في الأشياء المختلفة وعلى هذا الأساس وهذا اليأس قرر ترك البكاء والدموع والاستسلام للموت والقدر [٨] وبغيه إيجاد مسوغ لهذا الفناء

وهذا العدم فقد اسند القوة التي تتحكم بحياة الإنسان إلى الدهر الذي يمثل صورة من صور الزمان [٩].وظلت هذه الفكرة فكرة الفناء والعدم تراود تفكير الجاهلي لذا نراه يستسلم لفكرة القدر فشعر ان وجوده وجسده وجود وقتي زائل وان الحياة في ذاتها ومن ثم هو نفسه محض وهم [١٠]. ومقابل هذه الحياة التي باتت تربكه والمصير المحتوم والخوف من ذلك تمسك بالحياة الدنيا ويلجأ إلى التمسك ببعض المعتقدات والخرافات والأساطير، أملا منه بالبقاء لحقبة أطول وهذا ما أكده الحطيأة بقوله[١١]:

لا يَزجُرُ الطير أن مرّت به سُنُحا ولا يُفيضُ على قَسمٍ بأزلام

فالطير عندما يمرّ سانحا يعدُّ علامة من علامات الفرح ولا يُتطير منه. وظلت النظرة للخلود والفناء في نظر الجاهلين هكذا وان كانت هناك بعض المعتقدات الصحيحة المخالفة لهذه النظرة، حتى جاء الإسلام بدينه الحنيف الذي أجاب على كثير من هذه التساؤلات إجابات دقيقة معتمدة العقل والعلم وكان مصداق ذلك في كثير من آيات القرآن، كقوله تعالى : {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ }[١٢].فعبر عن الموت بأنه خَلق وقرنه بالحياة وليس هو عدما وفناء وعملية الخلق تعني إيجاد شيء من شيء..وكذلك في قوله تعالى:{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }[١٣].وقوله : { وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }[١٤].ونجد هذا المعنى في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا..)[١٥].والموت الذي يخيف الإنسان هو في حقيقة الأمر اكبر ضمانة للسلوك الإنساني الصحيح في الحياة الدنيا وذلك لان بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى فيها عقاب وثواب ومفهوم العقاب والثواب هو الميزان الصحيح الذي بوازن به تصرفات البشر ويحد من غيهم وتماديهم لان الحياة الأبدية الباقية تكون بعد الحساب والثواب وهي الحياة الأخرى في جنة أو نار فالموت في ضوء النظرية الإسلامية القانون الدقيق الذي

ينظم سلوك البشرية وتصرفاتها.والإنسان يعيش موتا دائما مستمرا لأنه في مواجهة مستمرة مع الحياة لان الموت ظاهرة من ظواهر الحياة [١٦]لقد أثرت الفلسفة الإسلامية ونظرتها إلى الحياة والموت في تفكير الإنسان المسلم والشعراء خاصة فراحوا يتعاطون المفاهيم الإسلامية في شعرهم ولاسيما ما يخص مصير الإنسان بعد الحياة الدنيا فكانت لهم آراء مبثوثة في شعرهم حول هذه المسألة المهمة وكان شاعرنا الشريف الرضي محمد بن أبي احمد الحسين بن موسى (ت ٤٠٦هـ) وهو من شعراء القرن الرابع للهجرة القرن الذي نضجت فيه المفاهيم الفلسفية كان له القدح المعلى في الإدلاء برأيه في شعره إذ ضمنه مفاهيم كثيرة تتعلق بفلسفة الخلود والفناء إذ ينفذ الشاعر من هذه الحادثة الفردية (الموت) إلى معان فلسفية عميقة فإذا نحن نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود [١٧] وسنعرض آراء الشريف الرضي في مسألة الحياة والموت والخلود في المباحث الآتية:

المبحث الأول

آراؤه في الخلق والحياة

من الآراء التي ورد ذكرها في شعر الشريف الرضي، مسألة خلق الإنسان والمادة التي خلق منها وجوهرها إذ قال في قصيدة يرثي بها صديقا له وقيل أنها في الطائع واصفا الموتى في قبورهم[١٨] :

أكلتهم الأرض التي ولدتهم أكل الضروس حَلَتْ له اكلاؤه

فهو يؤكد في قوله :(الأرض التي ولدتهم...) ان الإنسان مولود من هذه الأرض وان أصله من نطفة من تراب وماء فالتراب الذي هو مادة الأرض هو أساس المادة المخلوق منها الإنسان وفي قوله هذا إشارة إلى آيات قرآنية كثيرة أكدت هذا المعنى منها قوله تعالى: { خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ}[١٩] وقوله: { إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ}[٢٠] وقوله : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن

تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ}[٢١].وآيات أخرى تشير إلى هذا المعنى[٢٢].وفي البيت نفسه إيجاز لفلسفة إسلامية وهي ان الإنسان مخلوق من هذه الأرض وسيعود بعد موته إليها إذ ستتحد أجزاؤه وأعضاؤه مع ذريات التراب وتتحول بعد التفسخ إلى تراب. وما يبقى إلا الروح التي سترجع إلى بارئها، وهذا ما أكده في قوله السابق. ((أكلتهم الأرض التي ولدتهم...))وهذا يعني ان الأرض تأكل أبناءها الذين ولدوا من تربها ويشبه هذه العملية بالناقة الضروس التي يحلو لها أكل العشب.الشريف الرضي في قوله هذا يشير إلى الآية القرآنية التي تؤكد هذا المفهوم وهو قوله تعالى : {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }[٢٣]هذه الآية التي تحتوي على رؤية إسلامية كاملة تخص خلق الإنسان وموته وبعثه من جديد فهي تحتوي على هذا النسق، خلق، ثم موت ثم بعث وخلود من جديد وحياة أخرى جديدة إما في جنة أو في نار.ويكمل الشريف الإفصاح عن النظرية الإسلامية في الخلق والحياة والبعث والخلود في القصيدة مارة الذكر في قوله الذي يصف فيه الموتى في قبورهم وهم مسندون على جنوبهم ذاكرا انتظارهم يوم المعاد أي يوم القيامة قائلا[٢٤]:

ومسندين على الجنوب كأنهم شربٌ تخاذل بالطلا أعضاؤه[٢٥]
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى يوم المعاد تضمهم أشلاؤه

فهؤلاء الموتى موضوعون على جنوبهم وكأنهم جماعة الشاربين الذين تخاذلت أعضاؤهم، يضمهم الصعيد (التراب) ويحفظهم إلى اليوم الموعود (يوم المعاد). إذ تنتظر هذه الأرواح يوم البعث لتقف أمامه للحساب والعقاب والتراب ({يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ❖إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }[٢٦] إذ وصف الله سبحانه وتعالى هذا اليوم بقوله : {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ❖إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ }[٢٧].والشريف في ذكره ليوم (المعاد) يؤكد أصلا من أصول الدين الإسلامي والفلسفة الإسلامية المتعلقة بالبعث والحساب والحياة الآخرة وهو (المعاد) ويؤكد ذلك مرة ثانية بقوله:

كيف لا يطلب الحمام عليل حكّم الدهر فيه يوم المعاد

ويستمر الشريف الرضي في الإدلاء بآرائه عن الخلق والبعث والنشور والحساب ويوم المعاد متكئا على النظرية الإسلامية النابعة من القرآن دستور الإسلام،فيذكر لنا حساب البرزخ قائلا[٢٨]

ولقد مررت ببرزخ فسألته أين الأولى ضمتهم أرجاؤه

فيشير إلى حساب البرزخ الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[٢٩].وهو يعني المدة بين مفارقة الإنسان للحياة الدنيا ويوم الحساب وقيام الساعة وفي هذه المدة يحاسب الميت في قبره والبرزخ كما ورد في معناه هو الحاجز أو الحائل بين الشيئين فهو هنا الحاجز بين الحياة الدنيا والآخرة كما ورد في قوله تعالى {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ}[٣٠]والمراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة[٣١].وبعد البرزخ يأتي يوم البعث والنشور ويكون الحساب فأما الخلود في جنة وأما في نار يؤكد الشريف هذا المعنى ويقول في أبياته الآتية أن الإنسان كالشجرة الخضراء التي تُقصف أوراقها وتسقط وهو مخلوق وكأنه مرعى للردى فلا تعجب أيها الإنسان من الفناء بل العجب من البقاء، لان الفناء هو النتيجة الحتمية للإنسان، أما البقاء فمحال في هذه الحياة يقول[٣٢]:

انظر إلى هذا الأنام بعبرة لا يعجبنَّك خلقهُ وبهاؤه
بيناه كالورق النضير تقصفت أغصانهُ وتسلبتْ شعراؤه
أنّى تحاماه المنون وإنما خُلقتْ مراعي للردى خضراؤه
لا تعجبنَّ فما العجيب فناؤه بيد المنون بل العجيب بقاؤه

ويعطي الشريف الرضي عملية الخلق والفناء والخلود بعدا فلسفيا اكبر في قوله[٣٣]

لــو رجعنــا إلى العقــول يقينــا لرأينـــا الممـــات في المـــيلاد

فهـو في قولـه يؤكـد النظريـة الـتي تقـول : إنّ الموت في الميلاد والميلاد في الموت. هذا النسق الدائري الذي يفضي كل جزء منه إلى الآخر فالميلاد يفضي إلى الموت، والموت يفضي إلى الميلاد أي إلى الحياة الأخرى. في رؤية فلسفية متكاملة حول الخلود والفناء وفي هذا المعنى يقول [٣٤]

والعــيش يؤذننــا بــالموت أولــه ونحــن نرغــب في الأيــام والــدول

أن هذه النظرة إلى الحياة تؤكد نظرية الشريف مارة الذكر في جزئها الأول ((الموت في الحياة))وهذا يعني إن الإنسان يحمل عوامل موته في ذاته كأي كائن حي فهي تولد معه وتكبر ففقدان الشباب والكهولة ثم الهرم وغيرها من المظاهر التي يحملها الإنسان في ذاته والتي تلازمه في حياته ولا تستطيع ردها فضلا عما تجود به الحياة في أحيان كثيرة من عوامل مساعدة على الموت والفناء كالمرض والفقر والحرمان والفاقة والفشل في الحياة وعدم تحقيق الآمال والطموح كل هذه وتلك عوامل مساعدة على ذبول الإنسان وموته وهذه المعاني نجدها مبثوثة في شعر الشريف دون ان يكلفنا عناء البحث عنها كما في قوله مار الذكر :

والعــيش يؤذننــا بــالموت أولــه ونحــن نرغــب في الأيــام والــدول

وقوله[٣٥]:

لــو رجعنــا إلى العقــول يقينــا لرأينـــا الممـــات في المـــيلاد

وهذه النظرية لدى الشريف تقوم على أسس إسلامية صحيحة منبثقة من طبيعة الحياة التي يعيشها الإنسان، فالإنسان حينما يولد ينتظر موته الحتمي وان كان لا يعلم لان الموت هو النهاية الحتمية له والنتيجة المعروفة ولكن الإنسان في هذه الحقبة الزمنية الممتدة بين الميلاد والموت يحمل رسالة إنسانية عليه ان يؤديها على وجهها الأحسن إذ إن في هذا الأداء اختبار من لدن الخالق كما في قوله

سبحانه[٣٦]{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}.يقابل هذا الانتظار أي انتظار الموت بعد الميلاد يقابله (الميلاد بعد الموت) الذي يمثل الشطر الثاني من نظرية الحياة والموت. وهذا يعني أن الامتداد الحقيقي للإنسان هو في حياته الأخرى بعد موته وبعثه ثانية من لدن خالقه وقد تكون هذه الحياة خالدة في جنة أو نار كل حسب ما أداه من حسن عمل في حياته الأولى التي هي حياة اختبار وهذه الحياة الدنيا هي مزرعة يكون جني ثمارها في الحياة الآخرة.

وفي ضوء هذا الفهم للحياة والموت نستطيع القول ان الشريف الرضي الذي عاش في القرن الرابع للهجرة ت (٤٠٦هـ) امتلك سمة النضج في رؤيته لنسبية الحياة والموت وامتزاجهما بما يجعل هذا الامتزاج هو (المطلق) وبذلك يكون قد سبق السيّاب على سبيل المثال بأكثر من ألف سنة في إدراكه كمون الموت في الحياة وكمون الحياة في الموت[٣٧] هذه نظرات ثاقبة في فلسفة الحياة والموت قياسا إلى عصر الشريف الرضي اتكأ فيها الشاعر على ثوابت الفلسفة الإسلامية في هذا المجال وإزاء هذه النظريات تجاه الحياة والموت نجده يفصح عن آرائه في أمور كثيرة كرأيه في الدنيا والدهر والأيام والزمان والحب والفقر والغنى والأصدقاء والأقارب كل ذلك في نظرات فلسفية تنم عن شاعرية فاحصة لما ينتاب الإنسان في هذه الحياة.

من صور الحياة والموت

لا شك في أنّ حياة الشاعر وما فيها من حوادث ومصاعب تلقي بظلالها على تلك المسيرة وتلون جوانبها فرحا وحزنا، فإذا تتبعنا حياة الشريف الرضي نجدها ملأى بالأحداث الجسام التي تركت بصمتها على حياته فقد توفيت أمه وعمره ست وعشرون سنة وكان لهذه الحادثة اثر كبير في نفسه كما كان لنفي أبيه إلى فارس، وهو لم يزل في مقتبل حياته، اثر كذلك في نفسه وكان لإخفاقه في

تحقيق طموحه وقع شديد في نفسه، لذا يصح ان نقول كما قال زكريا إبراهيم ((ان الجزع من الموت هو أقوى ما يكون عند المتبرمين بالحياة بينما هو لا يكاد يقض مضاجع أولئك الذين يشعرون بقيمتها))[٣٨].لقد رسم الشريف الرضي صورا قاتمة للموت تنم عن برمه بالحياة وضجره تجاه ما يجري في عالمها، فالموت مغرم بالأنام والأيام تعصف باللئام وبالكرام وكيف يغتر الإنسان بالحياة الدنيا وهو يفر منها إلى الموت.

يقول [٣٩]:

عجزنا عن مرا غمة الحمام ... وداء الموت مغرى بالأنامِ
وأين نحور عن طرق المنايا ... وفي أيدي الردى طرف الزمام
نوائب ما أصخن إلى عتاب ... يطول ولا خدرن على ملام
هي الأيام تأكل كلّ حيّ ... وتعصف بالكرام وباللئام
وما يغتر بالدنيا لبيب ... يفر من الحياة إلى الحمام

وهو في إزاء هذا يرى ان في الموت راحة وخلاصا من عنت الأيام وجورها ووقوفها ضد تحقيق همته وآماله يقول [٤٠]

ألا لا أعد العيش عيشا مع الأذى ... لان فقيد الذل حيٌّ كميت
يخيفونني بالموت والموت راحة ... لمن بين غربي قلبه مثل همتي

وقال في هذا المعنى أيضا [٤١]:

وموت الفنى خير له من حياته ... إذا جاور الأيام وهو ذليل

وكأنه يذكرنا بقول جده الحسين (عليه السلام) :((لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين برما)).وبهذا المفهوم الذي يحمله الشريف يكون قد سبق شعراء العصر الحديث الذين امنوا بتلاشي الحياة وانتظروا الموت، وان كثيرا منهم من أشار إلى لا طبقيته فيها فهذا شكسبير يقول[٤٢]كل أولاد الثراء وبناته، كشأن منظفي المداخن يعودون إلى التراب وهم حين يدخلون عالمه لا يخشونه بل

يصورونه راحة من عناء الأعباء التي يحملونها من جراء عالمهم المتشابك فجوته (شاعر ألمانيا الكبير) ينتظر الراحة بالموت يقول [٤٣]:

كل شيء مستريح هادئ
وقريبا أنت أيضا تستريح

وكان كيتس شاعر انكلترا الكبير لم يخش الموت لأنه كان مؤمنا ان الموت ((ليس إلا انتقالة من غرفة إلى أخرى))[٤٤]

ومن آرائه في الموت ان الإنسان كلما تقدم خطوة في حياته وعمره المحدود يكون قد اقترب خطوة من اجله المحتوم يقول الشريف:[٤٥]

نخطوا وما خطونا إلا إلى الأجل وتنقضي وكأن العمر لم يطل
يأتي الحمام فينسى المرء ميتته واغفل الداء ما يلهي عن الأجل
ترخي النوائب من أعمارنا طرفا فنستعز وقد امسكن بالطول
يقودني الموت من داري فاتبعه وقد هزمت بأطرافي القنا الذبل

وهو أي الموت سلطة على الإنسان لا يستطيع ردها وان كان فارسا شجاعا قد هزم القنا (الذبل).

ولقاء الموت حاصل لا بد منه فلمَ لا يهيئ الإنسان نفسه للقائه يقول [٤٦]

ومالي من لقاء الموت بد فما لي لا أشد له حزيمي

وبالتأكيد فان الاستعداد للموت يعني التزود بزاد الآخرة وهو زاد التقوى كما ورد في قوله تعالى {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى }[٤٧].

وهو يطالب الناس ان لا يبالغوا في الفرار من المنايا معتقدين ان ذلك ينفعهم، فليس يفلت منها (الساري المجد) ويضرب مثلا بالملوك الماضين الذي حذروا الموت واستعدوا له يقول [٤٨]

رويدا بالفرار من المنايا فليس يفوتها الساري المجد
فأين ملوكنا الماضون قدما اعدوا للنوائب واستعدوا

أعـــارهم الزمـــان نعـــيم عـــيش فيـــا ســـرعان مـــا نزعـــوا وردوا

ومن نظراته للفناء والحياة المستمدة من النظرية الإسلامية قوله[٤٩] :

ومـا يعلـم الإنسـان في أي جانـب من الأرض يأوي في الترب منه جانب

إذ وظف الآية القرآنية التي تؤكد جهل الإنسان وعدم معرفته مكان موته وهو قوله تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ }[٥٠].

المبحث الثاني

رأيه في الدنيا

الدنيا : الحياة التي يعيشها الإنسان من مولده حتى مماته فهي الزمن بين الميلاد والموت هذا بالنسبة للفرد، وقد تعني حياة الخليقة من البدء حتى يوم البعث والحساب وهي بهذا المعنى تكون اشمل من المعنى الأول المتعلق بحياة الفرد. وعلى هذا التصور فهي تعني الظرف الزمني الذي يحتوي أفعال البشر وتصرفاتهم وما ينتابهم من مشكلات ومعضلات وأحداث وغير ذلك ويعبّر عنه أحيانا بالدهر والأيام والزمان وكل هذه الصور صور زمنية. وقد تتداخل هذه التعبيرات مع بعضها،والدنيا سميت كذلك لدنوها[٥١] وقد وصف القرآن الكريم الحياة الدنيا بأوصاف كثيرة فهي مرة متاع الغرور قال تعالى : {وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ }[٥٢] ومرة لعب ولهو قال تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ}[٥٣] ومرة قليلة المتاع في الحياة الآخرة قال تعالى: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ }[٥٤] وهذه أوصاف في ذم الدنيا. والدنيا في كل الأحوال ممر يجتازه الإنسان إلى حياة الآخرة، فمنهم من يسعد في هذه الحياة الدنيا ومنهم من تناله نكباتها وآلامها وغدرها وخيانتها كل بحسب ظرفه وملابسات حياته وعلى هذا الأساس كان للشعراء وغيرهم آراء كثيرة في التعبير عن الحياة الدنيا ورسم صورها وكان للشريف الرضي حظه الوافر

في التعبير عن آرائه تجاهها من ذلك قوله زاهدا فيها [٥٥]

ما لي إلى الدنيا الغرورة حاجة فليخز ساحر كيدها النفاثُ
طلقتها ألفا لأحسم داءها وطلاق من عزم الطلاق ثلاثُ
سكناتها محذورة وعهودها منقوضة وحبالها أنكاث
أم المصائب لا يزال يروعنا منها ذكور نوائب وإناث
إني لا عجب من رجال أمسكوا بحبائل الدنيا وهنَّ رثاثُ
كنزوا الكنوز واغفلوا شهواتهم فالأرض تشبع والبطون غراثُ
أتراهم لم يعلموا ان التقى ازوادنا وديارنا الاجداثُ

فالشريف الرضي في هذه الأبيات يصف الدنيا بنظرات فلسفية تمتلئ بإشارات كثيرة مأخوذة من النظرة الإسلامية ففي قوله في البيت الأول(ما لي إلى الدنيا الغرور حاجة) وصف للحياة الدنيا بأنها دار الغرور كما ورد وصفها في القرآن {وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ }[٥٦]ويصفها بان (كيدها ساحر نفاث) إشارة إلى الآية ({وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}[٥٧] ويصف هدوءها وسكونها مشوبا بالحذر فهي تهدأ لتثور وهي ليس لها عهد بل هي تنقض عهدها وحبالها أنكاث.. ويصفها بـ (أم المصائب) والعجب ممن تعجبهم الدنيا فحبالها رثة ضعيفة لا تدوم. وهم قد أطلقوا العنان لشهواتهم فصارت بطونهم خاوية من التقوى وهم يعلمون ان مصيرهم تحت التراب وان القبور ديارهم الأخيرة. ويقول في قصيدة أخرى واصفا اخلاق الدنيا بأنها أخلاق مومس يقول [٥٨]

وخلائق الدنيا خلائق مومس للمنع آونة وللإعطاء
طورا تبادلك الصفاء وتارة تلقاك تنكرها من البغضاء

فالدنيا تجود مرة وتبخل مرة أخرى وكأنها مومس تتمنع مرة وتعطي مرة وتبادل ـ أي الدنيا ـ أهلها الصفاء مرة والبغضاء مرة أخرى إلى درجة ينكرها أهلها من شدة تبعضها لهم. هذا الوصف للدنيا ينم عن فلسفة متدبرة لأحوال

الدنيا وتقلبها تجاه أهلها.يقول مرة أخرى[٥٩]

أبت لقحة الدنيا درورا لعاصب ويحلبها من لا يعاني عصابها[٦٠]

فهو في هذا التشبيه أسير حسه البدوي إذ شبه الدنيا باللقحة أي الناقة ذات اللبن التي لم تدر لم يعصب فخذيها ولكنها تدّر لمن يعصبها فالدنيا تجود لمن لا يستحق وتبخل على من يستحق وهو في هذه النظرة إلى الدنيا متأثر بما يعيشه من وضع اجتماعي وسياسي فهو صاحب المواهب والمنزلة المرموقة ولكن الدنيا قد حرمته مما ينوي تحقيقه من أمنيات في الوقت الذي جادت لغيره ممن لا يدانيه في نبوغه شيئا.

وفي المعنى نفسه يقول[٦١]:

أرى ذميَ الأيام ما لا يضرها فهل دافع عني نوائبها الحمدُ

وما هذه الدنيا لنا بمطيعة وليس لخلق من مداراتها بدُّ

تحوز المعالي والعبيد لعاجز ويخدم فيها نفسه البطل السردُ

ومعنى ذلك أن الدنيا تقبل على من لا يستحق، وتدبر بوجه من يستحق، تقبل على العاجز وتدتر بوجه البطل الفرد. ويصفها مرة أخرى بأنها (ملول) تواصل شخصا وتجفي شخصا ملالا وكأنها امرأة عطبول جميلة غانية يقول [٦٢]:

هي دنيا ان واصلت ذا جفت هذا ملالا كأنها عطبولُ

وهي أم تثكل أبناءها يقول[٦٣]

ألا إنما الدنيا إذا ما نظرتها بقلبك أم للبنين ثكول

ويصفها بأنها سم، وخوف، وهم يقول: [٦٤]

نعم أنها الدنيا سمام لطاعم وخوف لمطلوب وهم لطالب

ويصف الدنيا بأنها ضارة في الأحوال كلها، وليست سارة لأهلها، وهي متقلبة بأهلها تلقي لهم طرفا وكأنها تجذبهم إليها ولكنها إذا أدبرت وأعرضت لا

ينفع معها شيء وان كانت الجبال الرواس جواذب لها يقول[٦٥]:

دنيا تضرٌ ولا تسرٌ وذا الورى كل يجاذبها وكل عاتب
تلقي لنا طرفا فان هي أعرضت نزعت ولوان الجبال جواذب

وإزاء صفات الدنيا هذه يعبر الشريف عن موقفه الرافض لها يقول[٦٦]:

هيهات يا دنيا وبرقك صادق أرجو فكيف إذا وبرقك كاذب

وانطلاقا من آرائه هذه وقدرته في تشخيص تقلبات الدنيا بأهلها وعدم ثباتها وخيانتها وغدرتها فانه لا يأمن جانبها وان أقبلت عليه يقول [٦٧]:

خطبتني الدنيا فقلت لها ارجعي إني أراكِ كثيرة الأزواج

فهو المخطوب هنا لا الخاطب بمعنى ان الدنيا قد أقبلت عليه ولكنه لم ينخدع بإقبالها بل وصفها بأنها امرأة كثيرة الأزواج وكيف تكون المرأة كثيرة الأزواج فهو يعني ما يعنى من تقلب الدنيا وعدم دوامها لأحد كالمرأة الجميلة تنتقي ما يناسبها في كل مرة.

المبحث الثالث

رأيه في الدهر والأيام والزمان

الدهر والأيام والزمان معاني متقاربة في دلالتها وهي جميعا احد مظاهر الحياة الدنيا وكلها مرتبطة بالزمن وقد أكثر الشعراء من الشكوى من هذه المظاهر لأنهم في الغالب أخفقوا في تكوين علاقات متوازنة مع الواقع مما أدى إلى ان يكون هناك خلل مع المجتمع ولا سيما إذا كان المجتمع متخلفا يقف حائلا دون إنضاج العلاقات الإنسانية الرفيعة [٦٨] وهي أي الشكوى من الدهر والأيام والزمان وليدة الحرمان والظلم الاجتماعي والسياسي (والشعور بالحيف وعدم تحقيق الأمنيات والأهداف مما يؤدي إلى شيء من الاضطراب النفسي والتشاؤم الذاتي [٦٩] فإذا أدركنا أن الإنسان يعيش تحت سقف زمن محدد وان عمره متناه عرفنا ان وقوف هذه (الأدوات) (الدهر والأيام ..) بوجه الإنسان وحرمانها من

تحقيق الأهداف هو مظهر سلبي من مظاهر الحياة . ولذا كانت نظرة الجاهلي إلى الدهر نظرة سلبية تقوم على ان الدهر والأيام والزمان قوى مسيطرة لها القدرة على إفناء الأحياء وهي قوى خارقة لا يستطيع الإنسان ردَّ كيدها ولذا ربط الجاهليون بينها وبين الموت والفناء وقد عبر القران الكريم عن نظرتهم هذه بقوله: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ }[٧٠] .أما في العصر الإسلامي فقد حسن الإسلام من صورة الدهر في نظر المسلمين ففي قوله تعالى: { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ❖وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ }[٧١] والدهر لصيق المعنى بالليل والنهار وأيد هذا المفهوم ما جاء على لسان الرسول الكريم (ص):(يؤذيني ابن ادم بسب الدهر ، وإنا الدهر بيدي الأمر اقلب الليل والنهار والدهر هو الليل والنهار)[٧٢] وإزاء هذا المفهوم تجاه الدهر تغيرت النظرة إلى الدهر فلم يكن أداة للفناء والعدم مثلما كان اعتقاد الجاهلي ذلك لان الحياة في المنظور الإسلامي مستمرة فالحياة الدنيا تعقبها الآخرة وهناك خلود أما في الجنة أو النار وما على الإنسان إلا ان يعد العدة لحياته الأخرى لينال الخلود في الجنة .ولذلك فان نظرة الشريف الرضي تجاه الدهر والأيام والزمان لم تكن قائمة على إنها أدوات فناء وإنما هي في الغالب شكوى من هذه الأدوات وبرم لأنها لم تسعفه على تحقيق ما يصبو إليه من آمال وأهداف فهو يصف الدهر وقد أصبح حائلا بينه وبين مناه وآماله يقول[٧٣] :

ومن لي بتقبيل كف ألزما ... ن من قبل توقيعها باطراحي
كبا الدهر بيني وبين المنى ... وطال بزند الرجاء إقتداحي
أرى الحلم يطوي سباب الرجال ... والجهل ينشره في التلاحي
فيحسب عيا سكوت الحليم ... ويعطي السفية حظوظ الفصاح

فهو في هذه الأبيات يذكر الزمان والدهر وكلاهما قد وقف حائلا دون

تحقيق المنى ، فالشريف مازال يقدح بزند الرجاء مؤملا ان يحصل على شيء ولكن دون جدوى لان الدهر حال دون ذلك وهو إزاء هذه الفعل نجده يقارن بين الحلم الذي يتصف به هو والجهل المطبق على الآخرين فالحلم يطوي سباب الرجال والجهل ينشرها وهذه مفارقة كبيرة . فيصبح سكوت الحليم عيّا والسفه فصاحة .وبين هاتين الصورتين يخفق الإنسان في حياته ويصبح البرم والضجر نصيبه وتكير صورة الصراع بينه وبين الدهر حين يحل الشاعر (عقود النائبات) ولكن يد الدهر (تعقدها عقدا) وحين ينفذ الشاعر من كل السدود ولكنه يجد أمامه سدا دون ما يبتغي.

يقول[٧٤]:

كأني إذا جادلت دون مطالبي أجادل للأيام السنة لدا
احلُّ عقود النائبات وانثني وخلفي يد الدهر تعقدها عقدا
إذا ما نفذت السدّ من كل جانب رأيت أمامي دون ما ابتغي سدّا

فالشريف في صراع وحرب دائمة ومريرة مع الدهر ، والدهر ما يلبث يعمل ضده وليس هناك ما يستعين به على حرب الدهور قال[٧٥]:

أما في هذه الدنيا نجيبٌ يساعدني على حرب الدهور
فنشرب أجن الغدران فيها إذا ما الذل حام على النمير

فقد وصل به اليأس انه افتقد من يساعده في هذه الدنيا على حرب الدهور ويرى ان الدهر له جيوش من (الكيد) قد حشدها ضده قال[٧٦]:

قد حشد الدهر عليَّ كيده وجاءت الأيام بالزلزال
ومن عجيب ما أرى من صرفه قد دَميتْ من ناجذي أناملي
توكسُ أحداث الليالي صفقتي لا درَّ در الدهر من معامل

فقد جرد الشاعر من الدهر عدوا حشد كل كيده وساعدته الأيام على ذلك فأرى العجائب من الصروف حتى دميت أنامله دما.ويذم الشريف الرضي

الدهر ويرى ان طبعه العداوة فهو يعادي أبناءه ، وإذا نظرت إلى أبنائه لا تجد فيهم قرارا ولا ثبوتا بل هم في صراع مع بعضهم ، وهم في تحوّل دائم ، والشريف يقصد بأبناء الدهر أجزاءه ومكوناته فالليل والنهار والصبح والمساء هم أبناء الدهر ومكوناته ، لذا فله فلسفة ورأي مقابل هذا التحول والتغيير في الدهر . فلم يغتر بجوده وإعطائه الثراء بل ان هذا يزيده نفارا قال(٧٧) :

لحى الله دهرا كثير العدو حتى الظلام يعادي النهارا
تصفحتُ أوجه أبنائه فلم يجد اللحظ فيهم قرارا
رأيت الصباح يذم المسا ء ذمي ويكره منه الجوارا
ويشحب فيه على انه يبدل في كل يوم صدارا
فكونوا كما أنا في النائبات آبي مع القدح إلا استعارا

فالصباح يذم المساء ويكره جواره وسبب هذا الذم لأنه يغير اثوابه ولا أرى وجها لهذا التعليل إلا إذا قصد الشاعر (بالمساء) الليل الذي يغير اثوابه فمرة هو مظلم ومرة مقمر أما الصباح فهو على وتيرة واحدة وهذه الآراء وهذه الفلسفة عند الشريف لافتة للنظر حقا .

ويبلغ كيد الدهر أشده عند الشاعر إذ يقول(٧٨):

وأعظم ما ألاقي ان دهري يعدُّ محاسني لي من عيوبي

ويمازج الشاعر بين الدهر والأيام والزمان فمرة خصمه الدهر ومرة الزمان ومرة الليالي والأيام يقول (٧٩):

ولي أمل كصدر السيف ماضٍ سوى إن الليالي من خصومي

فالليالي هنا هي الخصم وقد وقفت دون تحقيق الأمل على الرغم من ان همة الشريف ورغبته في تحقيق أمله كصدر السيف وقول(٨٠):

لم يشفع الدهر الخؤون لمهجة في العمر إلا عاد وهو خصيمها
وكأنما الدنيا الغرورة بردة بيدي بلى ويروقنا تسهيمها

ويرى الشريف الدهر حاكما بين أهل الدنيا ينظر في المظالم في محكمة غير عادلة يقول عاتبا على الدهر وظلمه[٨١]

فأين من الدهر استماع ظلامتي؟ إذا نظرت أيامه في المظالم
أنا الأسد الماضي على كل فعله تمشي شفار البيض فوق الجماجم
ولم ادرِ ان الدهر يخفض أهله إذا سكنت منهم نفوس الضراغم

فالدهر لم يستمع إلى ظلامة الشريف ولم يعطه حقه ، وأي ظلامة هي؟.فالشريف يطلب الموازنة بين البشر واعطاء كل ذي حق حقه بحسب مايتمتع به من صفات فيرى انه الأسد الماضي وانه الفارس الذي مشت شفار سيوفه فوق الجماجم ولكنه لم ينل من هذه الدينا ما يتناسب مع مكانته وعزمه وهمته . لان الدهر في حكمه لا يعطي أهمية لمن سكنت نفسه ، ولو كانت همته همة أسد.والشريف دائما في حديثه عن الدهر والأيام والزمان يذكر همته وطوحه ويرى ان الدهر والأيام قد غبطت حقه ووقفت حائلا دون تحقيق المنى والأهداف ومن آرائه عن الدهر رأيه ان من صفة الدهر الإعطاء والحرمان فمرة يهب ومرة يسلب يقول[٨٢]:

ان قلّص الدهر ما أخفاه من جدة فصنعة الدهر إعطاء وحرمانُ

وهو أي الدهر . نعمة ومصيبة فهو يحمل حدين متناقضين ، الفرح والحزن فمرة يجود على أهله بالسرور ومرة بالحزن يقول[٨٣]:

وما الدهر إلا نعمة ومصيبة وما الخلق إلا امن وجزوع
عجبت له يسري بنا وهو واقف ويأكل من أعمارنا ونجوعُ

وهذه صورة غريبة للدهر كيف يسري وهو واقف؟ وكيف يأكل من الأعمار وكيف يجوع الإنسان؟ . فالشاعر ربما قصد بالدهر (الزمان) وان كان الزمان متحركا غير ثابت ولكنه بالنسبة لحركة الإنسان من الميلاد إلى الموت كأنما هو ثابت لا يتغير فالزمن هو هو ولكن البشر تمر على هذا العنصر وتتعاقب وهو

ما يزال ثابتا لم يتغير فهو الحادي بالنعوش يلتهم الاعتمار فيشبع ولكن الإنسان يفقد عمره فكأنه يجوع.

ويكرر الشريف هذا المعنى وهو كناية عن ذهاب أفراد هذا الجنس واختفائهم عن عالم الدنيا وكان هناك شيئا عملاقا يلتهم هؤلاء يقول[٨٤] :

ما للزمان يلذّ طعم مصائبي فكأنه يظمى ليشرب ادمعي
مغرى ينزع قوا دحي مستعذبا لتألمي من صرفه وتوجعي
أرعى الذين جنوا له ورق الغنى دوني واعلكني شكيمة مطمعي

فالزمان يتلذذ بطعم المصائب ويظمأ لكي يشرب ادمع الباكين وهو مغرم بنزع القوادم ويستعذب التألم والتوجع من صروفه العظيمة وهو راع الذين جنوا الغنى له ولكنه أعلك شكيمة المطامع لأصحابها ويركز على هذا المعنى بقوله [٨٥]:

نلهو وما نحن إلا للردى أكُل والدهر يمضغنا والأرض تبتلعُ

فهو يصف لهو الإنسان وغفلته عن الموت وكان العمر لا ينتهي وما يدري ان يد الأيام تمضغ جسم الإنسان لتبتلعه الأرض بعد ذلك فالإنسان ابتداء من الطفولة مرورا بالشباب و الكهولة والشيخوخة وانتهاء بالهرم وهو في مراحله المتقدمة يفتقد أجزاء من جسمه ، فهو يصاب بالخمول والركود وإذا بكل شيء يتغير ويتبدل حتى أعضاء الإنسان وخلاياه فنحن بمجرد ان ننظر في وجوه الناس نستطيع ان نقدر كم مضى عليها من زمن وسوف يأتي عليها زمن لن تعرف فيه معنى الزمن إذ لابد من ان تختفي لتظهر وجوه أخرى جديدة . و من دون هذه الأحداث المتغيرة لا يمكن ان نشعر بمرور الزمن[٨٦] إذا عرفنا ان من معاني الزمن هو العلاقة القائمة بين التغييرات الحادثة في عالم السماء بأجرامه وظواهره الطبيعية وبين الإنسان في تجربة وجوده بين الميلاد والموت [٨٧]ومرة أخرى يصف الدهر بأنه (خليع اللجام) متقلب في مواقفه فمرة يغير على أهله بصروفه ومرة يحامي ويدافع يقول[٨٨]:

هــو الــدهر فينــا خليــع اللجــام فطــورا يغــير وطــورا يحــامي

وهو إزاء مواقف الدهر هذه لا يريد منه أكثر من (حظ الجبان) ولا يريد حظ الشجاع يقول[٨٩]:

أريــد مــن الــدهر حــظ الجبــا ن لا قــدر حــظ الشــجاع الهمــام

ومن يدري فان حظ الجبان أوفر من حظ الشجاع الهمام في منظور الشريف لان الدهر حليفه ونصيره وهو دائما ينصر الجبناء ويخذل المبدعين .ومن آراء الشريف في الدهر ان النقص في العمر وفقر المال والعسر كلها مظاهر حرب الدهر يقول[٩٠]

يقولـون نم في هدنـة مـن الـدهر آمنـا فقلـت ومـن لـي ان يهـادنني الـدهر
هــل الحــرب إلا مــا تــرون نقيصــة من العمر أو عدم من المال أو عسر

ولذا كثر ذمه للزمان وتظلمه وحديثه عن معاناته الدائمة فقد جرب كل شيء في هذا الزمان وفشل في كل شيء ولم يحقق ما يبتغي من الآمال يقول[٩١]:

قـد لبسـت الخطـوب سـودا وبيضـا وقطعــت الزمــان طــولا وعرضــا
ووردت الأمــور صــفوا ورنقــا ورعيــت الآمــال رطبــا وحمضــا
وتلفعــت ربطــة مــن بيــاض أنــا راضٍ منهــا بمــا لــيس يرضــى
كــم مقــامي تلقــى علــيَّ الليــالي نوبــا لا أطيــق مــنهن نهضــا
وخطوبــا إذا نحــتن مــن العظــ م فــلا بــدعٌ ان عــرقن النحضــا[٩٢]

المبحث الرابع

أ ـ المرأة والشيب والشباب

تشكل المرأة القاسم المشترك الأكبر في آرائه عن الشيب والشباب فهي حاضرة لديه حين يطرق هذا الموضوع وهي الذات المتحدث عنها دائما فهي

عازفة وباخلة تجاه من حطت طاقات الشيب في شعره وهي متمنعة وهي صادة وهاجرة إلى غير ذلك قال الشريف[٩٣]:

ضاع الشباب فقل لي أين اطلبه وازوّر عن نظري البيض الرعاديدُ
وجرد الشيب في فوديَّ أبيضه ياليته في سواد الشعر مغمود
بيض وسود برأسي لا يسلطها على الذوائب إلا البيض والسود
يؤمل الناس ان يبقوا وما علموا ان الفتى ليد الأقدار مولود

فضياع الشباب وازورار البيض الرعاديد عن نظره يشكل محنة كبيرة لدى الشاعر تدعوه إلى التساؤل بشوق وقلق عن وسيلة ترجع له هذين المفقودين الشباب والنساء الجميلات فهو يفتش عن وسيلة ناجعة للتعويض عن هذا الفقد الكبير ، وما هذا الخسران إلا بسبب الشيب الذي جرد لونه الأبيض في فوْدَيْه ، لذا فهو يتمنى ان يغمد هذا البياض فيكون السواد سواد الشعر أكثف من بياضه ليغطيه والنوائب نوائب الدهر وتقلباته هي الأسباب الرئيسة في حضور هذا اللون الأبيض في شعره .

وهذا الحادث حادث الشيب هو نذير الفناء إذ لا بقاء ولا خلود كما يتمنى الناس بل إنهم مخلوقون للموت . فهو يختم الأبيات بحكمه تذكر الإنسان بالموت وربما يكون من مظاهر الموت عنده هو ازوراء البيض وانتهاء ود الأوانس لان ذلك يشكل عنده الفقد الكبير فقد لذة الحياة لأنها ستكون موتا وما ذلك إلا بسبب الشيب يقول [٩٤]

لو دام لي ودُّ الأوانس لم ابل بطلوع شيب وابيضاض غدائري
لكن شيب الرأس ان يك طالعا عندي فوصل البيض أول غائر

فهذه جدلية كبيرة بين ظهور الشيب وغياب البيض والأوانس لان الأوانس الجميلات لا يروق لهن الرجال في مرحلة الشيب ذلك لأنه يمثل مرحلة الذبول والانتهاء لا بل ان هذه المرحلة مطمع لسهام المنايا يقول[٩٥]:

وارى المنايــا ان رأت بــك شــيبة جعلتــك مرمــى نبلــها المتــواتر
تعشــو إلى ضــوء المشــيب فتهتــدي وتضــل في ليــل الشــباب الغــابر

فعلى ضوء المشيب تهتدي سهام المنايا ولكنها تضل طريقها في ليل الشباب أي عهد الشباب حينما يكون الشعر اسود . فالعلاقة وثيقة بين المشيب وعزوف النساء وبين المشيب والموت والفناء وهذه كلها ترتبط بعلاقة وثيقة بالحياة. وما يجري فيها من حوادث وخطوب ونوازل . ويربط الشريف الرضي بين الشيب واسوداد المطالب وعدم تحقيقها وكأنها من الأسباب التي عجلت في ظهور الشيب في رأسه يقول(٩٦)

أبيــاض رأس واســوداد مطالــب صــبرا علــى حكــم الزمــان الجــائر

كل ذلك، الشيب وعزوف النساء والموت وغيرها يجري في فضاء زمن يعيشه الإنسان بين الولادة والموت . يرسم لنا الشريف صورة تنم عن دهشة النساء وتعجبهن لما راينه من شعر ابيض في رأسه وكأن ظهور الشيب بدعة. يقول(٩٧):

تشــاهقن لمــا إن رأيــن بمفرقــي بياضا كأن الشيب عندي من البدعْ
وقلــنَّ عهــدنا فــوق عــاتق ذا الفتــى رداء مــن الحــوك الرقيــق فمــا صــنعْ
ولم أر عضــبا عيــب منــه صــقاله وكــأن جيبــا للقولــب علــى الطبــعْ
وقــالوا غــلام زيــن الشــيب رأســه فبعــدا لــرأس زانــه الشــيب والنــزع
تسلى الغواني عنه من بعد صبوة وما باعد النيت الهشيم من النجع
وكــنَّ يخــرقن الســجوف إذا بــدا فصــرن يــرقعن الخــروق إذا طلــع

فالشيب كأنه بدعة من البدع في رأي النساء . وهن يقارنَّ بين عهد مضى وزمن الشيب والشاعر يستغرب من ذلك اذ يقول كن يخرقن السجوف لكي يريني والان يرقعن الخروق كي لا يرينني ويقول(٩٨):

فمذ أضاء الشيب فودي تورع الزور عن مزاري
مثل الخيالات زرن ليلا وزلن مع طالع النهار

وما ذاك الازوراء والعزوف عن اللقاء والصدر والمجافاة إلا لان الشيب قد اظهر العيوب التي كان الشباب خافيا لها فمع مرور الزمان قد انحسر الشباب وبدا الشيب ومعه تلك العيوب وأولها البياض ، بياض الشيب وهو من شر العيوب ، وشر الأعداء والشريف يشبه هذا البياض بالنار ولكن هذه النار تضيء العيوب ليس إلا فيقول[٩٩]

ما لقائي من عدو كلقاء من مشيب
موقدٌ نارا اضاءتْ فوق فوديَّ عيوبي
وبياض هو عند البيـ ض من شر عيوبي

ومن آراء الشريف في الشيب والشباب ، ان الشباب مصدر قوة وسلاح بيد صاحبه والشيب ليس كذلك يقول مقارنا بين الحالتين[١٠٠]

وإذا دعوت اجبن غير شوامس زفَّ النياق إلى رغاء المصعب
فاليوم يلوين الوجوه صوادفا صد الصحاح عن الطلي الأجرب

وفي المعنى نفسه يقول[١٠١]

ولقد أكون من الغواني مرة باعز منزلة الحبيب الأقرب
اقتادهن بفاحم متخايل فيريبني ويرين لي ويزين بي

ويقول كذلك :

وولاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعزلك المشيب

ويرى في الشيب انه يغدر بالشباب ويعد مصابا كبيرا حين تغزو أيامه أيام الشباب متضافرة مع الزمان إذ يستغرب الشريف من ذلك ويعاتب الزمان يقول[١٠٢]

اغـدرا يـا زمـان ويـا شـباب أصـاب بـذا فقـد عظـم المصـاب
ومـا جزعـي لان غـرب التصـابي وحلـق عـن مفـارقي الغـراب
فقبـل الشـيب أسـلقت الغـواني قلـىً وأمـالني عنهـا اجتنـاب

ولكن المشكلة عنده هو غدر الأيام وغدر الأقارب والأصحاب يقول:

تجـاذبني يـدّ الأيـام نفسـي ويغـدر بـي الأقـارب والادانـي

ب ـ الموازنة بين الشيب والشباب :

ونرى الشريف مرة أخرى يوازن بين الشباب والشيب فلا يعد الشيب عارا ولا عيبا فلو ابغض النساء فيه الشيب فانه يبغض فيهن الشباب وتعد مرحلة الشيب مرحلة تعقل وحكمة وتفكير صائب وسليم في أمور الحياة وهو زاجر عن الغي والنزق وعن الصبا ومصاحبته لأنه قد عوض عن هذه المرحلة بأصحاب هم خير من أصحاب الصبا يقول[١٠٣]:

أرابـك مـن مشـيبي مـا ارابـا ومـا هـذا البيـاض علـي عابـا
لـئن أبغضـت مـني شـيب رأسـي فـاني مـبغض منـك الشـبابا
يـذم البـيض مـن جـزع مشـيبي ودلُّ البـيض أولُ مـا أشـابا
وكانـت سـكرة فصـحوت منهـا وانجـبَ مـن أبـى ذاك الشـربا
يميـلُ بـي الهـوى طربـا وأنـأى ويجـذبني الصـبا غـزلا فآبـا
ويمـنعني المعفـاف كـان بـيني وبـين مـآربي منـه هضـابا
نصـلت عـن الصـبا ومصـاحبيه وأبـدلني الزمـان بهـم صـحابا

ويبدو أن هذه المرحلة جديدة في حياة الشريف فهو يبدو أكثر قبولا لحادث الشيب وأكثر بعدا عن هوى الشباب إذ بدا يدافع عن هذه المرحلة مرحلة المشيب وبدا يقدم الأدلة المقنعة عن الشيب يقول[١٠٤]:

يهـاب سـيفك مصـقولا ومختضـبا واهيـب الشـعر شـعر غـير مخضـوب

فالسيف يهاب عندما يكون مصقولا كذلك الشعر اهيبه غير المخضوب

ويرى أن في أيام المشيب أياما سعيدة يقول[١٠٥]:

وما كل أيام المشيب مريرة ولا كل أيام الشباب عذاب

ومرة أخرى يرحب بالمشيب يقول[١٠٦]:

وقالوا الشيب زار فقلت أهلا ينور ذوائب الغصن الرطيب
ولم أكن قبل وسمك لي محبا فيبعد بي بياضك من حبيب
ولا ستر الشباب علي عيبا فاجزع ان ينمّ على عيوبي
ولم اذمم طلوعك بي لشيء **سوى قرب الطلوع إلى شعوب**

فلم يجزع من الشيب الذي هو نور للذوائب، فلم يكن قبل ذلك محبا حتى يبعده عن حبيبه ولم يكن الشباب يستر عيوبه فيكون المشيب مظهرا لتلك العيوب فلم يذم الشريف الشيب لشيء سوى انه يقرب الإنسان من نهايته المحتومة. هذا في ظاهر الكلام ولكن في حقيقة الأمر يبدو الشريف ممتعضا ومستاء من حياته في شبابه وشيبه فلم يكن شبابه أفضل من شيبه فكلاهما سيان عنده وهذا ينم عن حالة الاستياء التي يعيشها الشاعر من زمانه وما يجري فيه . ويقول[١٠٧]:

قل لزور الشيب أهلا انه اخذ الغيّ وأعطاني الرشد
طارق قوّم عودي بالنهى بعدما استغمز من طول الاود
وقرّ اليوم جموحا رأسه جار ما جار طويلا وقصد

فالشيب يأخذ الغيّ ويمنح الرشد ويقوم العود بالنهى ويوقر الجموح..الخ.

والشريف يبدو متناقضا في آرائه هذه فآراؤه في بداية الشباب تناقض آراءه في سنينه الأخيرة من عمره فقد كان يذم طلوع الشيب في رأسه رافضا ذلك رفضا قاطعا واصفا له بالضوء الذي لا يستضاء به يقول[١٠٨]:

لا تأخـــذيني بالمشـــيب فانـــه تفويـــف ذي الأيـــام لا تفـــويفي
لـــو اســـتطيع نضـــوت عـــني بـــرده ورميـــت شمـــس نهـــاره بكســـوف
كـــان الشـــباب دجنـــة فتمزقـــت عـــن ضـــوء لا حســـن ولا مـــألوف
ولـــئن تعجـــل بالنصـــول مخلفـــة رومـــات ســـوق للمنـــون عنيـــف
وإذا نظـــرت إلى الزمـــان رأيتـــه تعـــب الشـــريف وراحـــة المشـــروف

فالشيب عنده هو صنعة الأيام لا صنعته ولو استطاع لرمى بياضه بالكسوف وهو يرى ان الشيب الذي حل مكان الشباب ضوء لا حسن ولا مألف. وهو من نتائج الزمان الذي هو دائما تعب للشريف وراحة للمشروف. يقول(١٠٩):

ضـــوء تشعشـــع في ســـواء ذوائـــبي لا استضـــئ بـــه ولا استصـــبحُ
بعـــت الشـــباب بـــه علـــى مقـــةٍ لـــه بيـــع العلـــيم بأنـــه لا يـــربح

فقد باع الشباب وأبدله بالشيب على كره وهويعلم انه خاسر لا رابح . ويقول(١١٠) :

وليـــت صـــبحا ســـاءني ضـــؤه زال وابقـــى ليلـــه الالـــيلا

وهو لديه صبح ولكن فيه إساءة.

ج- الشيب والموت

يمثل الشيب عند كثير من الناس المرحلة الأخيرة من مراحل العمر وقد تطول هذه المرحلة وقد تقصر ، ولذا فان اغلب الناس يتطيرون من ظهور الشيب في شعرهم ولاسيما حين يكون ظهوره مبكرا فإذا اشتعل الراس شيبا كان ذلك دليل الضعف والوهن وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى(١١١) {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً }فهو نذير الموت والحديث عن الشيب والشباب مرتبط بالزمان أو الزمن فهو الفضاء الذي يتحرك فيه الإنسان منذ ولادته حتى مماته وعادة ما يقرن الشعراء الحديث عن الشيب بصروف الزمن

ونوازله وكثرة تقلباته ومجافاته لهم ووقوفه عقبة كؤود في طريق تحقيق الآمال والأهداف ولا ينفصل ذلك عن الحديث عن الوضع السياسي والاجتماعي الذي يعيشه الإنسان في عصر من العصور إذ يكثر البرم والضجر والتأزم النفسي في أثناء حدوث الكوارث والمحن وسيطرة الأعداء على مقاليد الأمور في الدولة مثلما حدث في القرن الرابع للهجرة عصر الشريف الرضي لهذا كله كان للشريف آراء عن الشيب والموت عبر عنها بصورة وجدانية رائعة تنم عن شاعرية متألقة فمن آرائه في ذلك انه نذير الموت يقول[١١٢]:

وارى المنايا ان رأت يك شيبة جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي وتضل في ليل الشباب الغابر

فالشيب ضوء يهدي سهام الموت نحو صاحبه ويتمنى عودة الشباب بعد الشيب فلو كان هذا الشباب يفدى لا فتداه يقول [١١٣]

لو يفتدي ذاك السواد فديته بسواد عيني بل سواد ضمائري

ويقرن حالة الشيب هذه بجور الزمان واسوداد المطالب والإخفاق في تحقيقها قال[١١٤]:

أبياض رأس واسوداد مطالب صبرا على حكم الزمان الجائر

وقال أيضا [١١٥]

عمر الفتى شبابه وإنما آونة الشيب انقضاء العمر

فهو يعدُّ حقبة الشباب هي العمر الحقيقي للإنسان وأما حقبة الشيب فهي دليل الرحيل وانتهاء العمر. ومن صوره التي تنم عن حالة متأزمة تجاه حادث الشيب وظهوره في رأسه وقد صوره سيفا قاطعا يقطع العنق [١١٦]

تنفس في راسي بياض كأنه صقال تراق في النصول الروانق
وما جزعي ان حال لون وإنما ارای الشيب عضبا قاطعا حبل عاتقي
فما لي ادم الغادرين وإنما شبابي أدنى غادر بي وماذق

تعيرنـــي شـــيبي كـــأني ابتدعتـــه ومـــن لـــي ان يبقـــى بيـــاض المفـــارق

فالشيب سيف قاطع للرقاب وهو دليل غدر الشباب وعند الشريف ان غدر العمر هو ظهور الشيب وهو أعظم من غدر الغادرين لأنه في رايه سيقعده عن مواصلة الطموح ويحجم نفسه الطامحة للمعالي .

ويقول في هذا المعنى [١١٧]

أرنـــو إلى يَقَـــقِ المشـــيب فـــلا أرى إلا قواضـــــب للرقـــــاب تســـــلل
واللمـــة البيضـــاء اهـــون حـــادث في الـــدهر لـــو ان الـــردى لا يعجـــل
ولقـــد حملـــت شـــبابها ومشـــيبها فـــإذا المشـــيب علـــى الـــذوائب أثقـــل

فالمشيب قواضب تسللت نحو الرقاب وظهور اللمة البيضاء هينة لولا أنها تجعل الموت يسرع نحوه. وله في هذا المعنى [١١٨]

مـا نـازل الشـيب في راسـي بمرتحـل عـــني واعلـــم إنـــي عنـــه مرتحـــلُ
مـن لم يعظـه بيـاض الشـعر ادركـه في غـــرّه حتفـــه المقـــدور والآجـــل
مـــن أخطأتـــه ســـهام المـــوت قيَّـــدهُ طـــول الســـنين فـــلا لهـــو ولا جـــذلُ

فهو يقارن بين ثبات الشيب في رأسه ورحيله هو عن هذه الدنيا وهو يعلم علم اليقين انه مرتحل بعد نزول الشيب في رأسه، ويرى ان الشيب موعظة على الإنسان أن يتعظ بها وإلا سينزل به حتفه المقدور على حين غرة . ويرى ان طول السنين قيد من قيود الموت فعلى الإنسان أن يعلم ذلك.وهو دائما يربط الشيب بالموت فهذه جدلية لا تفارقه فالبقاء مع الشيب أمر يحول فعلى الإنسان أن يدع التفكير في هذا الأمر أمر البقاء يقول:[١١٩]

وحائـــل لـــون الشـــعر في كـــل لمـــة دليـــل علـــى ان البقـــاء يحـــول
نؤمل ان نروي من العيش والردى شـــروب لأعمـــار الرجـــال اكـــو
وهيهـــات مـــا يغـــني العزيـــز تعـــزر ولا ينجـــــي الـــــذليل خمـــــول
دع الفكـــر في حـــب البقـــاء وطولـــه فهمـــك لا العمـــر القصـــير يطـــول

فتغير لون الشعر دليل على ان البقاء مستحيل وكيف يكون ذلك وهو دليل الموت الذي يشرب أعمار الرجال ويأكلها ، وهذه صورة تشخيصية رائعة وهو بعد يذكرنا في البيت الثالث بالفلسفة القرآنية في الآية التي تقول: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ }[١٢٠] فالكل يموت ولا يحمي العزيز تعززه ولا الذليل خموله ، فكم يفكر الإنسان في حب البقاء؟. فالعمر قصير لا يطول ولكنَّ الهم إثر التفكير في البقاء يطول.

رابعا : رأيه في المال والغنى والفقر:

للشريف آراء في المال والغنى والفقر تنبع في أعلبها من فلسفة إسلامية وآراء قرآنية ، إذ تشكل هذه الآراء الإسلامية أعمدة وثوابت مهمة في فلسفته تجاه المال والغنى والفقر فمن تلك الثوابت القناعة والزهد في الدنيا وعدم كنز المال وان الراحة في القناعة وليس في كدّ النفس واجهادها في طلب المال وآراء أخرى نجدها مبثوثة في شعره يقول[١٢١]:

ولست بخزان لمال وإنما تراث العلى والفضل والمجد ماليا
وإتلافي مالي عن حياتي ألذُّ لي ولا خير ان يبقى وأصبح فانيا
واني لألقى راحتي في تقنعي وفي طلب الإثراء طول عنائيا

فهو غير جامع للمال ولا خازن له وكأنه ينطلق من الآية القرآنية[١٢٢]{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ....}.فلا مال عنده يستحق الجمع إلا جمع العلى والفضل والمجد فهي أشياء لا تفنى بل هي باقية بقاء الأيام أما المال بصورته الحقيقية المتمثلة بالذهب والفضة فهذه فانية ولا خير في بقائها وهو يعلم انه فانٍ.اما راحته فهي في القناعة والزهد في الدنيا أما الجد والكد وطلب الغنى فهذه طول عناء . وفي هذا المعنى يقول[١٢٣]:

أبثك أن المال عار على الفتى ... وما المال إلا عفة وقنوع
وتشتاق نفسي حالة بعد حالة ... وازجرها إني أذن لقنوع

إذ يعد المال عارا على الرجل في صورته المتمثلة بالذهب والفضة وان المال الحقيقي هي العفة والقناعة فإذا كانت نفس الإنسان عفيفة وقنوع فهذا مال لا بعده مال . ويشير إلى رغبة النفس في امتلاك المال ولكنه يردعها عن غيّها وهذا برهان القناعة عنده.أما عن أثر المال في هذه الحياة فله دوران احدهما مشرف وأخر ردئ إذ يرفع المال من مكانة السفيه إذا ملأ جيبه ويحطّ من مكانة الحليم إذا خلا منه جيبه فنقصه يحطّ من قيمة الإنسان ووفرته ترفعها ولو كان الإنسان سفيها.

يقول [١٢٤]:

رأيت المال يرفع من سفيه ... وعدم المال ينقص من حليم

وكأنه يتحدث بيننا ألان ويذكرنا بحالنا الذي نعيشه في مجتمع القرن الحادي والعشرين وكيف ينظر الناس إلى أصحاب الثروات والأموال وان كانوا لا يفقهون من دنياهم شيئا ، وكيف ينظرون إلى المعدمين وان كانوا عباقرة مبدعين فالغنى يرفع السفيه والعدم يحطُّ من قدر العزيز، وفي المعنى نفسه يقول [١٢٥]:

كم ذلَّ العدم العزيز وعظمتْ ... نفحات هذا المال غير عظام

وقول عن المال والأصدقاء[١٢٦]

إذا قل مالي قل صحبي وان نما ... فلي من جميع الناس أهل ومرحب
غنى المرء عز والفقير كأنه ... لدى الناس مهنؤ الملا طين اجربُ

وهو في هذين البيتين يرسم لنا صورة واضحة عن قلة الأصحاب المرتبط بقلة المال وهي علاقة طردية فكلما نما المال زاد معه الأصحاب وكلما قلّ،قلّ معه الأصحاب والأصدقاء من ناحية ومن ناحية أخرى فان الغنى عز والفقر مذلة في رأي هؤلاء وكأن الفقير جمل أجرب مطلي بالقارواذا كان الغنى عز في رأي

أصحاب المال فان الفقر والعدم في رأيه مأثرة وفخر ، (وبعض المال منقصة وعاب) يقول[١٢٧] :

يريدون الغنى والفقر خير إذا ما الذل أعقبه الطلابُ
وبعض العدم مأثرة وفخر وبعض المال منقصة وعابُ

فهو هنا يقارن بين حالتين حالة الفقر والعدم التي يعدها مأثرة ومفخرة، وبين بعض المال الذي يعده منقصة وعابا ويعني في ذلك ان بعض الفقراء والمعوزين لا تجرهم المغريات إلى استعمال وسائل غير مشروعة في كسب المال بل تحسبهم أغنياء من التعفف إشارة إلى الآية { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً....}[١٢٨]أما بعض المال الذي يكسبه أصحابه بطرق غير مشروعة فهو منقصة وعيب وعن جمع المال وكنزه يقول

وإتلافي مالي عن حياتي الذّ لي ولا خير ان يبفى وأصبح فانيا

فهو يرى ان من الأفضل إنفاق الرجل ماله في حياته فلا خير في بقاء المال من بعد فناء صاحبه وكأنما يردُّ على من يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله في حياتهم الدنيا اذ ستكون بعد ذلك وسيلة للعذاب في حياتهم الآخرة . ومن ناحية ثانية انه يقارن بين الإنسان الفاني والمال الباقي إذ لا خير في مال باق بعد فناء صاحبه . ومع كل هذا الزهد والقناعة لا يحب الشريف ان يكون معدما من المال فالمال عصب الحياة والوسيلة التي يحيا بها الإنسان ويديم حياته ولكنه ليس غاية ويقرن الشريف مسألة العدم من المال بمسألة الشيب ويعدهما دائين ولكن لا يمكن ان يداويهما طبيب يقول [١٢٩]

آه من دائين عدم ومشيب رب سقم لا يداوى بطبيب

خامسا :رأيه في الحب

لا ينفصل الحديث عن الحب عند الشريف عن المرأة والشيب والشباب مثلما لا ينفصل عن الطموح والأهداف فبين هذه الموضوعات أكثر من وشيمة

وأكثر من علاقة فالحديث عن الحب يقود إلى الحديث عن المرأة والحديث عن المرأة يقود إلى الحديث عن الشيب والحديث عن المرأة كذلك يقود إلى الحديث عن الآمال والتطلعات والأهداف والطموح فكل هذه الموضوعات تربطها جدلية محكمة كما سنرى ذلك في نماذج من شعره هذا من جهة ومن جهة ثانية إنني لا اقصد في حديثي عن فلسفة الحب عند الشريف وصف مغامراته العاطفية وتجاربه في الحب أو وصف عواطفه المتأججة أو علاقاته بالنساء فكل ذلك يدخل في الحب بوصفه تجربة إنسانية ولا اقصد كذلك ان الشريف أحب أو لم يحب وكيف تفسر قصائده المسماة بالحجازيات هل هي حب حقيقي أم غير ذلك؟ . وإنما قصدت آراءه الفلسفية الخاصة في الحب ، فهل الحب عنده حياة أو موت؟ أم غير ذلك ؟ فمنهم من يرى ان الحب موت وان المحب لا يصبح حبه إلا إذا أدى به إلى الموت كما هو عند شعراء الصوفية [١٣٠] فهذه آراء فلسفية نجد ما يشابهها في شعر الشريف الرضي. فمن آرائه الفلسفية في الحب قوله ان الحب داء[١٣١] .

والحب داءٌ يضمحل كأنما ترغو روازحه بغير لغام

فهو شبيه بالناقة التي سقطت اعياءً أو هزالاً وقد جفت أحشاؤها وذبلت فهي ترغو بغير لغام . وهذا يعني ان الحب يبدأ قويا ثم يضمحل وينتهي إذ تجف العاطفة بمرور السنين ويبدأ التعقل هذا إذا كان هذا الحب حبا مبنيا على العاطفة لا العقل وقد قال بعض العلماء ان الحب العاطفي ينتهي بين الرجل والمرأة بعد أول وصال جنسي وهو قبل ذلك داء يصيب الإنسان وماذا يجني الإنسان من الداء؟ يقول(١٣٢):

ولي كبد من حب ظمياء أصبحت كذي الجرح ينكأ بعدما رقأ الدم
أصاب الهوى قلبا بعيدا عن الهوى وما كل من يبغي السلامة يسلمُ
اجمجم عن عواد قومي علتي وحبكم ذاك الدخيل المجمجمُ

فكبده قد تقشرت كالجرح بعد ان يجف دمه ولم تبرأ بعد فقد أصابه داء

الهوى بالرغم من طلبه السلامة وقد كان يخفى داءه وهو الحب عن عواده وزائريه بمعنى انه لم يفصح عن سبب علته لعواده كأنه يخفي داء يتحاشاه الناس.

وهو يتقي الحب كما يتوقى المرض وسلاحه في وقايته عفافه يقول(١٣٣):

تلثمت من فضل العفاف عن الهوى نجـــاء مـــن الـــدنيا اعـــزّ لثـــام
وخالفــت في ذا الصــوم ســنة معشــر صـــيام عـــن العـــوراء غـــير صـــيام

وهو يخالف الصائمين عن العوراء في صيامه لأنهم في رأيه غير صائمين حقيقة . وإذا كان الحب يعمر قلوب بعض الناس فقلبه قد خربه هذا الداء يقول(١٣٤) :

فمـن كـان هـذا الحـب يعمـر قلبـه فقلـــبي مـــن داء الغـــرام خـــرابُ

وما دام الحب داء فهو معيق عن تحقيق الآمال ومثبط للغرائم وهذا هو المحور الثاني من آراء الشريف عن الحب ورأى بين الاثنين علاقة جدلية هي علاقة المرض بالصحة فالحب مرض والبرء من الحب صحة ونقاء.

ويرى الشريف إن بين عزمه وطموحه وبين النساء وهن الطرف الثاني في عملية الحب حروبا يقول(١٣٥):

بـــين عزمـــي وبيـــنهن حـــروب ان أقواهـــــا هـــــو المغلـــــوب

ولا ادري لماذا يكون القوي مغلوبا في هذه الحروب الدائرة على مر الزمان؟.بينه وبين النساء؟ .

ويفصح الشريف مرة أخرى عن رأيه في الحب والنساء يقول(١٣٦):

ومـالي عنـد البيـض يـا قلـب حاجـةٌ وعنـد القنـا والخيـل والليـل مطلـبُ
أحـــب خليلـــي الصـــفيين صـــارمٌ وأطبـــب داريَّ الخبـــاء المُطنَّـــبُ

فليس الحب هدفه الأساس وليس النساء غايته فلا حاجة له بهن وإنما مطلبه القنا والخيل والليل . فهذه أشياء تحقق الطموح وليس النساء . فالسيف أحب أصدقائه والخباء المطنب أحب دار له . وكل هذه من أدوات الحرب

والفروسية والحياة الشديدة البعيدة من اللهو والحب . وربما خالف الشريف الرضي في فلسفته هذه الشعراء الفرسان الذين يكون الحب دافعا لهم في حروبهم وصولاتهم وله الغدر في ذلك فالشعراء الفرسان قد يكون دافعهم في الحرب دفاعهم عن صاحباتهم ومن ثم إثبات ذواتهم ليحققوا بطولة يرجون منها اعترافا من حبيباتهم بهم ولم يكن الشريف الرضي كذلك فله من المكانة والمجد والنسب ما يغنيه عن ذلك فلم تكن المرأة هدفه وإنما هدفه اكبر من ذلك فقد تكون الخلافة هدفه الأعلى ولذا فان حاجته ليست عند البيض كما يقول وإنما عند القنا والخيل والليل وهذه من وسائل تحقيق السلطة ويؤكد هذا التنافر بين الحب وبين الطموح فلا التقاء بينهما فإذا كان الوقت وقت أعداد للحرب فلا مجال لذكر الغواني أو مصافحتهن ، يقول(١٣٧)

وما أهوى مصافحة الغواني إذا اشتغلت بناني بالعنان(١٣٨)

وهذه فلسفة يخالف فيها من يقول(١٣٩)

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل الرماح لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ويعد الشغف بالنساء والولع بهن جناية على الرجل يقلل من عزم الشجاع وهمته على الرغم من انه يعترف بشغفه بالحب يقول (١٤٠)

إني لأكرم نفسي أن يقال جنى على الفتى العربي الخرد العربُ

إني على شغفي بالحب معتذر من ان يقال شجاع فله الوصبُ

وهذه أهم الآراء التي شكلت فلسفة الشريف الرضي تجاه قضايا الحياة وهناك آراء أخرى في شعره يضيق البحث عن ذكرها.

نتائج البحث

بعد هذه المصاحبة الممتعة لديون الشريف الرضي التي حاولت فيها استنطاق نصوصه فيما يخص آراءه في الحياة والموت بمظاهرها المتعددة ، توصلت

إلى ما يأتي

١. تنبثق فلسفة الشريف الرضي في الحياة والموت من ثوابت الفلسفة الإسلامية فهو في أغلب الأحيان يجسد مفهوما إسلاميا منبثقا من آية قرآنية
٢. جسد الشريف الرضي في أرائه عن الحياة والموت فكرة خلود الإنسان بعد موته، أما في جنة أو نار كل حسبما أدّاه من أعمال في حياته في دار الدنيا وبذلك عمّق فكرة الخلود ونفى فكرة الفناء والعدم بعد الموت التي كانت سائدة في معظم الفلسفات قبل الإسلام
٣. اثبت من خلال أرائه فكرة التلازم الجدلي بين الحياة والموت فهما دائما في نسق دائري يؤدي احدهما إلى الأخر فالحياة تؤدي إلى الموت والموت يؤدي إلى الحياة الخالدة .
٤. ركز فكرة الموت في الحياة بمعنى ان الحياة تحمل أسباب الموت متمثلة في المرض والهرم والشيخوخة والعوز وعدم تحقيق الآمال وهي مظاهر تُسلم الإنسان إلى الموت الذي ينتظره.
٥. أكد في شعره ان الأرض أساس خلق الإنسان فمنها خلق وفيها يعود ومنها يخرج وهو في هذا قد ولج في صميم الفلسفة الإسلامية التي تؤكد هذه المسألة في آيات كثيرة أشار إليها البحث دون أن يخرج على مفاهيم الفلسفة الإسلامية أو يخرقها بل كانت صوره متوائمة مع مفاهيم تلك الفلسفة .
٦. تبدو آراء الشريف عن الشيب والشباب متناقضة في الظاهر ، فتارة يمدح الشباب ويذم الشيب وتارة يمدح الشيب ويذم الشباب ، ولكنها في حقيقة الأمر مرتبطة بالموقف الذي يتحدث عنه فحين يكون في موقف عاطفي يتحدث فيه عن المرأة نجده يذم الشيب ويمدح الشباب وحين يكون في موقف يسيطر عليه التعقل والحكمة يكون العكس .
٧. يعزو الشريف الرضي إخفاقه في تحقيق طماحه إلى موقف الدنيا والدهر والأيام والزمان ضده فهو في صراع دائم معها وهو المغلوب لا الغالب دائما

لان هذه الذوات ديدنها الغدر بأهلها . وهناك آراء أخرى ذكرها البحث.

٨. رسم الشريف الرضي صورا رائعة للحياة والموت في مظاهرها المتعددة دون ان يخرج على مفاهيم الفلسفة الإسلامية أو يخرقها بل كانت صوره متوائمة مع مفاهيم تلك الفلسفة.

وأرجو ان أكون قد قدمت ما يفيد وما توفيقي إلا بالله فمنه التوفيق ومنه السداد.

الملخص

استعرض البحث أراء الشريف الرضي الواردة في شعره عن الخلود والفناء . هذه المشكلة التي أرقت الإنسان وشغلت تفكيره خلال العصور القديمة التي سبقت مجيء الإسلام والتي لم يجد لها حلاً شافياً مقنعاً إذ كانت الفلسفات والأديان في تلك الحقب الزمنية تعتقد إن الموت فناء وانتهاء وعدم ولكن الإسلام قد أعطى الحل الشافي لهذه المشكلة وقرر من خلال نظرته للحياة ، إن الحياة الدنيا لها امتداد في الحياة الآخرة وان الإنسان لا يفنى بعد موته وان الفناء الذي نلحظه هو فناء الأجسام وان الأرواح خالدة في الحياة الآخرة في جنة أو نار . وقد أكد ذلك من خلال آيات كثيرة مبثوثة في سور القران ، وكان الشريف الرضي موضوع البحث من الشعراء الذين تناولوا هذا المفهوم في شعره الذي جاء مصداقاً لهذه الفلسفة لان الشريف الرضي كان متأثراً تماماً بالفلسفة الإسلامية هذا فضلاً عن أراء أخرى للشريف عن الدنيا والدهر وعن الغنى والفقر وعن المرأة والشيب . والشباب والحب وغيرهما كل هذه المسائل عالجها البحث مستشهداً بنماذج شعرية من شعر الشاعر تؤكد ذلك .

Abstract

The research reviewed the opinions of poetry concerning immortality and mortality this problem that exhausted man and occupied his mind during the ancient ages which preceded the coming of Islam which never found a convincing answer since the philosophies and religions of that time lacked the fact that death is mortality but Islam gave a convincing answer to this problem. Through its view to life that. The worldly life has an extension in the afterlife and that humans do not end after death and that death is the end of the body and the spirit is immortal in heaven or hell.This is confirmed through many verses holy Quran. The topic of this research is Al- sharif Al- Redhy who was one of the poets who tackled this concept in his poetry which confirmed this philosophy because Al- Redhy was a ffected by Islamic philosophy as well as other opinions of Al- Redhy about earthly life and time , richness and poverty , woman , old age , youth and love . All of these topics were tackled in this research exemplifying from poetic images that confirm that.

الهوامش

(١) ينظر السياب:عبد الجبار عباس:٢٤٣.

(٢) ينظر: الموت في الفكر الغربي ،جاك شورون ،ص٢٩.

(٣) البقرة /٩٦

(٤) المشكلات الكبرى/ اولف جيحن / ٣٦٥.

(٥) ينظر : الموت في الفكر الغربي جاك شورون /٣٦

(٦) ينظر ملحمة جلجامش / طه باقر /١١٧ط/٣ بغداد ١٩٧٥.

(٧) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : علي جواد ٢٦/٦.

(٨) ينظر: الحياة والموت في الشعر الجاهلي/ مصطفى جاووك /١٦٩.

(٩) ينظر : الصورة الفنية معيارا نقديا /عبد الإله الصائغ /٢١٣.

(١٠) ينظر: الشاعر والوجود في عصر ما قبل الإسلام / باسم ادريس قاسم / ٤٧١رسالة ماجستير.
(١١) ينظر ديوان الحطياة ٧٦
(١٢) سورة الملك/٦٧.
(١٣)آل عمران/١٦٩
(١٤) سورة العنكبوت/٦٤، وانظر الكهف/١٨، الروم /٣٠، غافر/١٤، الصافات /١٧، الحج/٢٢.
(١٥) شرح أصول الكافي : المازندراني :٣٩٤/٨.
(١٦) ينظر لحظة الأبدية / سمير شاهين ٢٧٦- ٢٧٧.
(١٧) ينظر الرثاء في العصر الجاهلي / مصطفى عبد الشافعي ١٦٤.
(١٨) ديوان الشريف ٢٤/١.
(١٩) الكهف /١٨
(٢٠) الحج /٢٢
(٢١)الروم٢٠
(٢٢) ينظر الرحمن /٥٥، غافر/٤٠، الحجر /٥٠، الأنبياء/٢١، المؤمنون / ٢٣، الصافات /٣٧.
(٢٣)سورة طه٥٥
(٢٤)ديوان الشريف الرضي /٢٤.
(٢٥) الشرب : القوم يشربون.
(٢٦) سورة الشعراء /٨٨و٨٩
(٢٧) سورة القيامة/ ٢٩و٣٠.
(٢٨)ديوان الشريف الرضي١/٢٤.
(٢٩)سورة المؤمنون/١٠٠
(٣٠)سورة الرحمن/٢٠
(٣١) الميزان في تفسير القرآن ٦٨/١٥.
(٣٢)ديوان الشريف /٢٣.
(٣٣) نفسه ٢٣٢/١.
(٣٤) نفسه ٦٣٨/٢
(٣٥) نفسه ٢٣٤/١.

(٣٦) سورة الملك/٢

(٣٧) ينظر السياب / عبد الجبار عباس ٢٤٣ومصدره بدر شاكر السياب المراهق محمد الجزائري مجلة الآداب عدد/٣آذار ص٢٠-٢٤.

(٣٨) تأملات وجودية،د.عبد الرحمن بدوي، ص١٠٩.

(٣٩) ديوان الشريف الرضي٢/٨٣٠

(٤٠) نفسه :٢/٨٦٤.

(٤١) نفسه ١٦١/١وينظر الديوان ٥/١ ،٤٠١/١.

(٤٢) ينظر:المطر والميلاد والموت في شعر السياب:عبد الرضا علي مجلة الأقلام ص١١ نقلا عن الغصن الذهبي /جيمس فريزر ٢٥١.

(٤٣) نفسه /٢٦٨.

(٤٤) ينظر عشتار ومأساة تموز /د.فاضل عبد الواحد علي ٢٤-٢٥بغداد ١٩٧٣.

(٤٥) ديوان الشريف الرضي ٢/٦٨٣.

(٤٦) نفسه ٢/٨٣٨.

(٤٧)سورة البقرة١٩٧

(٤٨) ديوان الشريف ١/٢٨٣.

(٤٩) نفسه ١/١١٥.

(٥٠) سورة لقمان٣٤

(٥١) مختار الصحاح مادة دنا.

(٥٢) سورة آل عمران/١٨٥

(٥٣) سورة الأنعام٣٢،العنكبوت /٦٤.

(٥٤) سورة التوبة/٣٨

(٥٥) ديوان الشريف الرضي ١/١٧٨.

(٥٦) آل عمران/١٨٥.

(٥٧)الفلق٤

(٥٨) ديوان الشريف الرضي ١/١٩.

(٥٩) نفسه ١/٥٥.

(٦٠) العاصب : من يعصب فخذي الناقة لنذر ،اللقحة : الناقة ذات لبن.

(٦١) ديوان الشريف الرضي ١/٢٥٨.

(٦٢) نفسه ٦٥٨/٢

(٦٣) نفسه.

(٦٤)نفسه ١١٩/١.

(٦٥)نفسه ٦٦/١

(٦٦)نفسه:٦٦/١.

(٦٧) نفسه: ١٨٦/١.

(٦٨) ينظر : ظاهرة الشكوى في شعر بني هذيل /بتول البستاني / رسالة ماجستير /١٧.

(٦٩) ينظر: الشكوى في الشعر الجاهلي / قحطان رشيد التميمي / مجلة كلية الآداب جامعة بغداد عدد١٣/١٩٧٠

(٧٠)الجاثية٢٤

(٧١)إبراهيم٣٣و٣٤

(٧٢) ينظر صحيح البخاري ٥٧٤/٨.

(٧٣) الديوان ١٩٢/١.

(٧٤) نفسه:٣٠٨/١.

(٧٥) نفسه:٣٤٠/١

(٧٦) نفسه:٦٤٥/٢.

(٧٧)ديوان الشريف ٣٣٩/١والصدار ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشي/المصدر.

(٧٨) نفسه: ٨٠/١.

(٧٩) نفسه:٨٣٥/٢

(٨٠)ديوان الشريف:٨٣٣/٢.

(٨١) نفسه :٨١٣/٢.

(٨٢) نفسه ٨٧٠/٢.

(٨٣)ديوان الشريف ٤٧٣/١.

(٨٤) نفسه ٤٨٠/١.

(٨٥) نفسه ٤٩٢/١.

(٨٦) ينظر الزمن البايلوجي ، عبد المحسن صالح مجلة عالم الفكر المجلد الثامن /عدد:٢ص٦١/الكويت ١٩٧٧.

(٨٧) ينظر مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية :كمال صفوة مجلة عالم الفكر مج:٨ عدد /٢ص٢٣١- ٢٣٣الكويت ١٩٧٧.

(٨٨)ديوان الشريف ٨٠٠/٢.

(٨٩) المصدر نفسه ٨٠٠/٢.

(٩٠) الديوان ٤١٣/١.

(٩١) المصدر نفسه ٤٣٩/١.

(٩٢) النحضى:اللحم.

(٩٣)ديوان الشريف ٢٠٨/١.

(٩٤) المصدر نفسه: ٣٧٠/١.

(٩٥) نفسه٣٧٠/١.

(٩٦) المصدر نفسه/٣٧٠.

(٩٧) نفسه ٥٠٠/١.

(٩٨) نفسه ٣٩٧/١.

(٩٩) المصدر نفسه:٤٢/١.

(١٠٠) نفسه ١٤٦/١والزف : الإسراع . والمصعب : الفحل ، وغير شوامس : أي غير ممتنعات .

(١٠١) نفسه :١٤٥/١.

(١٠٢) نفسه ٩٩/١.

(١٠٣) نفسه ٧٢/١.

(١٠٤) الديوان ٤٧/١.

(١٠٥) المصدر نفسه:٤٩/١.

(١٠٦) نفسه:٨٠/١.

(١٠٧) نفسه :٢١١/١.

(١٠٨) المصدر نفسه :٥٢٠/١.

(١٠٩) نفسه : ٢٠٠/١.

(١١٠) نفسه ٦٨٨/٢.

(١١١)مريم/٤

(١١٢) الديوان ٣٧٠/١.

(١١٣) نفسه.

(١١٤) نفسه

(١١٥) نفسه

(١١٦) الديوان ٥٥٧/٢.

(١١٧) نفسه ٦٣٢/٢ واليقق : شدة البياض.

(١١٨) نفسه ٦٥١/٢.

(١١٩) ديوان الشريف الرضي ٦٦١/٢.

(١٢٠)الرحمن٢٦

(١٢١) الديوان / ٩٨٤/٢.

(١٢٢)التوبة٣٤-٣٥

(١٢٣) الديوان ٤٧١/١.

(١٢٤) نفسه: ٨٣٧/٢.

(١٢٥) نفسه ٧٧٣/٢.

(١٢٦) نفسه : ٦١/١.

(١٢٧) نفسه : ١٠٠/١.

(١٢٨) البقرة٢٧٣

(١٢٩) الديوان ٩٨٢/٢.

(١٣٠) ينظر ديوان ابن الفارض ص ٤٢،١٦٨. وينظر الأعمال الكاملة .الحلاج ص ٤٢ و١٧٠،١٦٩

(١٣١) الديوان : ٢،٧٧٢وزحت الناقة إذا سقطت إعياء أو هزالا.

(١٣٢) الديوان ٧٦٧/٢.

(١٣٣) نفسه ٢/٨٤٦.

(١٣٤) الديوان : ٤٩/١.

(١٣٥) نفسه ١٦٠/١.

(١٣٦) الديوان ١٦٠/١.

(١٣٧) نفسه ٩١٠/٢.

(١٣٨) العنان: سير اللجام الذي نسك به الدابة.

(١٣٩) ديوان عنترة :١٤٧.

(١٤٠) الديوان١٥١/١.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- الحياة والموت في شعر السياب : د.صالح علي حسين ، مجلة كلية المعلمين السنة السادسة عدد/١٧/١٩٩٩م.
٣- ديوان الحطيأة : تحقيق نعمان محمد أمين طه ، مطبعة الخانجي ، القاهرة المؤسسة السعودية بمصر ١٩٧٨م.
٤- ديوان الشريف الرضي : مؤسسة الاعلمي / بيروت لبنان.
٥- ديوان عنترة بن شداد / تقديم وشرح وتعليق الدكتور محمد حمود ـ دار الفكر اللبناني ط١بيروت ١٩٩٦.
٦- الزمن البيولوجي : عبد المحسن صالح ، مجلة عالم الفكر مج / ٨عدد/٢ الكويت ١٩٧٧.
٧- السياب: عبد الجبار عباس / الجمهورية العراقية / وزارة الإعلام دار الحرية للطباعة ١٩٧٢م.
٨- الشاعر والوجود في عصر ما قبل الإسلام باسم إدريس قاسم / رسالة ماجستير: كلية الآداب / جامعة الموصل ١٩٩٢م.
٩- شرح أصول الكافي : المازندراني جـ /٨ط١ دار أحياء التراث العربي للطباعة والنشر بيروت / لبنان ٢٠٠٠م.
١٠- شعر الرثاء في العصر الجاهلي : مصطفى عبد الشافعي / الدار الجامعية بيروت ١٩٨٧
١١-الشكوى في الشعر الجاهلي : د. قحطان رشيد الميمي ، مجلة كلية الآداب / جامعة بغداد عدد/ ١٣/ ١٩٧٠م.
١٢- صحيح الخاري : مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده / ميدان الأزهر / مصرد.ت
١٣- الصورة الفنية معيارا نقديا : د.عبد الاله الصائغ / دار الشؤون الثقافية العامة ط/بغداد ١٩٨٧م.
١٤- ظاهرة الشكوى في شعر الهذليين : بتول البستاني / رسالة ماجستير ـ كلية الآداب/ جامعة الموصل ١٩٧٨.
١٥- لحظة الأبدية : سمير الحاج شاهين : ط/ ١المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت /١٩٨٠.
١٦- مختار الصحاح :الرازي : مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر ١٩٥٠م..

١٧- المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية: اولف جيجن ترجمة د.عزة قرني توزيع دار النهضة العربية: القاهرة ١٩٧٦م.
١٨- المطر والميلاد والموت في شعر السياب : عبد الرضا علي : الاقلام عدد/١٣السنة /١٣وزارة الثقافة والفنون كانون الأول ١٩٧٧م.
١٩- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : د.جواد علي .ط٢/ مكتبة النهضة . بغداد ١٩٧٨م.
٢٠- مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية : كمال صفوت مجلة عالم الفكر مج/٨ عدد/٢ الكويت١٩٩٧.
٢١- ملحمة جلجامش : طه باقر ط/٤ دار الحرية بغداد١٩٨٠م.
٢٢- الموت والعبقرية : عبد الرحمن بدوي : دار العلم بيروت ١٩٧٨.
٢٣- الموت في الفكر الغربي : جاك شورون : ترجمة كامل يوسف مراجعة وتقديم د.امام عبد الفتاح : عالم المعرفة الكويت ١٩٨٤م.
٢٤- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي : مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ط/١ بيروت / لبنان ١٩٧٧م.